موقف ألمانيا إزاء المسألة المصرية

١٨٧٦ — ١٩١٤

مقدمة :—

هذا البحث مبنى الى حد كبير على الوثائق السياسية الألمانية التى نشرتها الحكومة الألمانية فى مجموعة Grosse Politik der Europaïschen Kabinette وذلك عقب انتهاء الحرب الكبرى الأولى •

ولقد خصصت فصول من هذه المجموعة للمسألة المصرية ، وقيمة هذه الفصول كبيرة دون ريب اذ أنها تستعرض موقف الحكومة الألمانية بازاء المسألة المصرية بصفة عامة وحيال العلاقات الانجليزية المصرية بصفة خاصة • وتكثر الوثائق بطبيعة الحال فى الأوقات التى ثارت فيها مسألة مصر بحيث أصبحت محط أنظار الدول ، وذلك حين هاجت المسألة الشرقية وحين احتدمت الأزمة الاستعمارية •

ولا يوجد فى هـذه الوثائق بصفة عامة تعارض مع وثائق وزارة الخارجية الانجليزية المودعة فى ألPublic Record Office الى سنة ١٨٨٦ ولا مع ما نشرته الحكومة الانجليزية من كتب زرقBlue Books ، ولا مع ما نشرته الحكومة الفرنسية من وثائق (عقب الحرب الكبرى الأولى) فى مجموعة Documents Diplomatiques Français

ولذا فقيمة هذه الوثائق الألمانية جوهرية فى كل الدراسات التاريخية والسياسية التى تتعلق بموقف ألمانيا وموقف الدول العظمى نحو مصر عقب سنة ١٨٧٥ • ولا ريب فى أن الوثائق الدبلوماسية التى نشرتها

الحكومتان الانجليزية والفرنسية تكمل هذه الوثائق فيما يختص بهذا الموضوع ، ولذا فليس للباحث غنى عنها .

كما أن هناك بعض كتب وبحوث حديثة فى التاريخ الأوربى المعاصر لا معدى للباحث عن الرجوع اليها وقد أشير اليها فى ذلك البحث .

لقد كانت مسألة مصر فى أول الأمر مرتبطة فى ذهن المستشار الألمانى بزمرك (Bismarck) بمسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها ، ولم تكن سياسة بزمرك فى السنوات العشر التى تلت سنة ١٨٧٠ سياسة المحافظة على كيان هذه الدولة أو سلامتها ، فلقد صرح مرارا فى أحاديث متعددة له حين ثارت المسألة الشرقية ثورتها العنيفة فى سنة ١٨٧٦ بأن ليس للحكومة الألمانية مصالح مهمة تدعوها للتدخل فى شئون الدولة العثمانية ، وأنه لايرثى لحال مسيحي هذه الدولة أو مسلميها على السواء ، فمصير الدولة العثمانية كما قال مرة متهكما لا يدعوه لأن يبذل فى سبيله دم جندى بروسى واحد ، وأن كل ما يهمه فى هذه الأزمة المستحكمة المعقدة المصاعب هو أن يضع نفوذه العظيم فى خدمة أصدقائه وليست الدولة العثمانية واحدا منهم . (١)

وبزمرك هو الذى دعا الانجليز لأخذ مصر ، وهو الذى عمل على تثبيت أقدامهم فيها ، وعضد سياسة الاحتلال فى سنة ١٨٨٢ ، فأيد انجلترا تأييدا لا تشوبه شائبة ، ونصرها نصرا مبينا ، وجعل من مسألة مصر وسيلة قوية لربط انجلترا بدول التحالف الثلاثى ، ذلك التحالف الذى كونه من ألمانيا والنمسا والمجر وايطاليا للمحافظة على مركز ألمانيا المتفوق فى أوربا .

ولقد اتبع هذه السياسة بصفة عامة خلفاؤه كابريفى (Caprivi) ومارشال (Marshall) .

اهتمت الحكومة الامبراطورية الألمانية لأول مرة بالمسألة المصرية حين

---

(١) الوثائق الألمانية بيلوف Bülow وزير الخارجية الألمانية إلى منستر Münster السفير الألمانى فى لندن ٤ يناير سنة ١٨٧٦

ثارت المشكلة الشرقيـــة فى أوائل الربع الأخــير للقرن التاسع عشر ، فالمستشار الألمانى يرى أن مسألة مصر جزء من هذه المسألة لا ينفصل عنها ، وهو يهتم بالمسألة المصرية لا لقيمتها فى ذاتها ، أو لمصالح ألمانيا فيها، وانما هو يهتم بأمور مصر كوسيلة يسترضى بها الحكومة الانجليزية التى مابرحت تنظر الى ألمانيا بعين الحسد والحقد وتخاف شوكتها فى أوربا ، ولذا فهو فى أول فرصة ينعى على الحكومة الانجليزية عدم استغلالها لهذه الأزمة الشرقية ، لهذه الفرصة الثمينة فى نظره ، ويرى أنه ينبغى لها الآن أن تفكر جديا فى أخذ نصيبها من الأسلاب التى تجمعت نتيجة لتــدهور الدولة العثمانية وضعفها المتزايد ، ويرى أن خير مكان وأنسب بقعة تستطيع أن انجلترا أن تذهب اليها هى وادى النيل .

فهو قــد اقتنع تماما بضرورة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبرى ، ورأى فى هذا التقسيم خير طريق للمحافظة على السلام فى أوربا وعلى السيطرة الألمانية فيها ، فتأخذ صديقته النمسا والمجر البوسنة والهرسك ، أى تسيطر على غربى البلقان تقريبا ، وتهيمن روسيا على شرقيه ، وتنفذ بنفوذها الى المضايق البوسفور والدردنيل ، وتضم انجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا . فمصر بموقعها الجغرافى الممتاز ومواردها الغنية كافية لأن تعوض انجلترا عما تقطعه روسيا من ممتلكات الدولة العثمانية فى البلقان . ولم يكن المستشار الألمانى يهدف الى خلق سوء تفاهم من فرنسا وانجلترا من أجل مصر ، وليس صحيحا من الناحيــة التاريخية ما يزعمه الأستاذ سيتون واطسون Seton-Watson ، أستاذ الدراسات الصقلبية فى جامعة لندن ، من أن بزمرك أراد من وراء هذه السياسة أن يصيب عصفورين بحجر واحد : ارضاء انجلترا من ناحية ، وافساد العلاقات الانجليزية الفرنسية من ناحية أخرى[1] ، فسيظهر من خلال ذلك البحث أن بزمرك فى ذلك الوقت (من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٨١) كان مخلصا فى العرض الذى قدمه للحكومة الانجليزية ، وأنه فى نفس

(١) فى كتابه Disraeli and Gladstone and The Eastern Question ص ٣٠٩

الوقت كان يعمل على خلق جو من التعاون السياسى بين الدولتين الغربيتين خارج حدود القارة الأوربية .

حرص بزمرك حرصا كبيرا على أن يوجه نظر الحكومة البريطانية الى انتهاز هذه الفرصة ، فرصة قيام المسألة الشرقية ، ففى مذكرات له سطرها لوزارة الخارجية الألمانية فى خريف سنة ١٨٧٦ يرى أنه اذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية فانه يقترح أن تنتهج بريطانيا العظمى نفس السنن الذى تنتهجه روسيا ، فاذا كانت روسيا تريد أن تستحوذ على النقط الاستراتيجية اللازمة لها بالسيطرة على المضايق البوسفور والدردنيل والاشراف على الاستانة ، فعلى الحكومة الانجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة على مصر وقناة السويس ، فهو اذن يرى أن يكون موقف انجلترا فى وادى النيل موقفا مشابهـا لموقف النمسا على الأقل بازاء الولايتين العثمانيتين المتاخمتين لها : البوسنة والهرسك ، ويرى فى هذا الحل حلا سليما للمشكلة الشرقية معقولا ومقبولا وينطوى على جانب كبير من الحكمة السياسية ، حلا خيرا فى نظره من معارضة انجلترا لروسيا فى البلقان وقيام حرب شعواء بينهما قد تتحول الى حرب أوربية عامة طاحنة تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق ، فكما يقول « انه من الخير لبريطانيا أن تأخذ قناة السويس والاسكندرية بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا ، وبذلك وحده تتوثق عرى السلم فى أوربا » . (١)

وهو يرى أنه اذا خشيت الحكومة الانجليزية من اتباع مثل هذه السياسة مناوءة فرنسا وعداءها ، فما عليها الا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى الى مناطق نفوذ ، فتوافق فرنسا على تفوق النفوذ الانجليزى فى مصر نظير موافقة الانجليز على تفوق النفوذ الفرنسى فى سوريا ، وبذا ترضى فرنسا . وكان بزمرك يرى أن الغلبة فى النهاية

---

(١) الوثائق الألمانية .

ســتكون للدولة الممتازة من الناحيــة البحــرية والأكثر مرونة فى الاستعمار [1] .

ولم يقتصر بزمرك على عرض هــذه الفكرية على حكومة ديزريلى Disraeli المحافظــة ، بل أرسل الى سفيره فى روسيا شفينش Schwiniz يطلب منه أن يعرض على الحكومة القيصرية الروسية فكرة أخذ الانجليز لمصر ليعرف ماذا يكون موقف روسيا[2] فهو يعتقد أن من الضرورى أن توافق على هذه الفكرة اذا أرادت ألا تقــاوم انجلترا رغبة الروس فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق البوسفور والدردنيل .

ولذا فليس من العجيب أن يجد بزمرك فى زيارة نوبار باشا للندن فى ربيع سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لبسط حماية انجليزية على مصر أمراً طبيعيا [3] . ويكرربزمرك بأنه ينصح وما أنفك ينصح لبريطانيا العظمى بأخذ مصر . وأن هذه الخطوة مباركة فى نظره ، فهى أجل خدمة تستطيع انجلترا تقديمها للسلام فى أوربا ، فالمستشار الألمانى يخشى قيام حرب بين روسيا وانجلترا تجد الدولة الألمانية نفسها مرغمة على الدخول فى غمارها .

ولكن الحكومة الانجليزية حكومة المحافظين ما كانت تقبل بسهولة مثل هذا المقترح ، فرئيسها لورد بيكونز فيلدBeaconsfield بالرغم من أنه هو الذى عقد صفقة قناة السويس ، فاشترى أسهم الخديو فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بالشرق ، وبالرغم من أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وضخامة آثارها ، وبهاء نيلها ونخيلها وكثرة خيراتها [4] الا أنه كان فى ذلك الوقت لايرى فى احتلال الانجليز لمصر

---

(١) نفس المصدر السابق ٢٠ أكتوبر سنة١٨٧٦

(٢) نفس المصدر بيلوف إلى شفينش .

(٣) كما يعلق على رسالة أرسلها له سفيره فى لندن بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٨٧٧ ، وكان نوبار قد قام بهذه المهمة دون أن يكون الخديو اسماعيل على علم بها ، الوثائق الألمانية .

(٤) أنظر Monypenny and Buckle : Life of Disraeli الجزء الأول الفصــل الخاص برحلة ديزريلى إلى الشرق ومصر ، لقد زار ديزريلى مصر فى أيام شبابه وتنقل فيها من رشيد إلى الشلال .

وسيلة ناجعة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى ، فهو يقول اذا أخذ الروس الآستانة فانه يمكنهم فى أى وقت أن يجوسوا بجيوشهم خلال سوريا ويصلوا الى مصب النيل ، وعند ذلك ماذا تكون فائدة أخذ الانجليز لمصر ، « وحتى قواتنا البحرية لا تستطيع أن تعزز مركزنا فى مثل ذلك الموقف ، وان الناس الذين يتكلمون بهذه الطريقة يجهلون الجغرافيا تماما ، والآستانة لامصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الى الهند » [1] ، ولقد أبدى بيكونز فيلد عجبه والشك الذى خالج نفسه من كثرة عروض بزمرك ، وذكر أنه يفضل أن تستولى انجلترا على آسيا الصغرى ذاتها [2] .

على أن الحكومة الانجليزية اذا كانت راغبة عن احتلال مصر فى ذلك الوقت الا أنها كانت حريصة على ألا تمتد اليها يد الحرب التى ثارت ثائرتها فى البلقان ، فلقد انتشرت الاشاعات فى ذلك الوقت التى تقول بأن روسيا تنوى ادخال مصر فى غمرة الحرب ، فهى تنوى محاصرة الشواطىء المصرية بأسطول البحر الأبيض المتوسط ، أو هى تنوى أخذ ارمينية ، وأرمينية مفتاح سوريا وسوريا مفتاح مصر ومصر مفتاح افريقية !!! ولذا قدم داربى Derby وزير الخارجية الانجليزية الى شوفالوف Shuvalov السفير الروسى فى لندن مذكرة تقول بأن مصالح انجلترا سوف تضطرها لاتخاذ خطة الدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة فى قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم على مصر . واستفسرت الحكومة الانجليزية فوق ذلك من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة مصر أم لا ، وبينت فى نفس الوقت أن أى عمل حربى يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره انجلترا عملا عدوانيا اعتدائيا موجها ضدها .

---

(١) المرجع السابق جزء ٤ ص٨٤ عن Seton Watson: Disraeli and Gladstone. ص٩٨

(٢) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ١٠٩

(٣) الوثائق السياسية الفرنسية Srie. Documents Diplomatiques Français جزء ٢ رقم١٧١ دكاز Decazes وزير الخارجية الفرنسية إلى الجنرال لفلو Le Flô سفيره فى بطرسبرج ٢١ مايو ١٨٧٧

ولم يهدأ بال انجلترا ولم تطمئن الا حين علمت أن هذه الاشاعات هى محض اختلاق [1] . وفى أثناء الحرب الروسية التركية أعلنت روسيا عن رغبتها فى ارضاء انجلترا بأنها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل [2].

وفى الواقع أن انجلترا كانت فى ذلك الوقت أى فى سنة ١٨٧٧ تخاف عواقب اتباع السياسة التى يقترحها بزمرك ، وتخشى بصفة عامة عداوة فرنسا ، لا سيما وأن الرأى العام الانجليزى كان يعتقد تماما فى هـذه السنة أن المستشار الألمانى غير مخلص فى ذلك العرض فدوافعه غير بريئة ، فهو يريد أن يدفع بانجلترا الى مصر لكى تؤيده فى الاستيلاء على هولندا ، وحتى الملكة فكتوريا نفسها ملكة انجلترا كانت مصدقة للاشاعات التى تملأ الجو السياسى فى أوربا برغبة ألمانيا فى الاستحواذ على هولندا ، مما اضطر السفير الألمانى فى لندن الى أن يؤكد للحكومة الانجليزية بأن ما يشاع عن رغبة الألمان فى ضم هولندا محض افتراء لا صدق فيـه ولا غناء [3]

على أن المستشار الألمانى لم ييأس ولم يكترث لمثل هذه الأراجيف ، فهو يدون فى مذكرة له أنشأها فى كسنجين Kissingen فى صيف سنة ١٨٧٧ لوزارة الخارجية الألمانية : « لقد رغبت فى حث الانجليز على أخذ مصر اذا كانوا لا يزالون يطمعون فيها ، لأنى أعتقد أن من مصلحتنا وخير مستقبلنا العمل على تقابل الانجليز والروس فى منتصف الطريق ، فاذا استطاعت انجلترا وروسيا الوصول الى اتفاقية : بها تسيطر روسيا على البحر الأسود وانجلترا على مصر كان ذلك خدمة جليلة للسلام فى أوربا » ، ولكن ما العمل اذا كان الانجليز لا يرون فى أخذ مصر حلا كافيا

(١) Sumner: Russia and The Balkans. صفحات ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٦١٨ ، Seton-Watson Disraeli Gladstone ص ١٧٢

(٢) Set-Watson Disraeli and Gladstone ص ١٩٣

(٣) الوثائق الألمانيـة مذكرة لبزمرك كتبها لوزارة الخارجية الألمانيـة بتاريخ ١٥ يونيه سنة ١٨٧٧ ، ومنستر إلى بيلوف ٦ يونيه سنة ١٨٧٧

لمشكلة المضايق ، فملكة انجلترا ووزراؤها ليست عندهم ذرة ثقة فى روسيا [1] .

ثم ان لورد داربى وزير الخارجية فى وزارة المحافظين فى ذلك الوقت لم يكن ميالا بطبيعته الى اتباع سياسة خاصة نشيطة ، فهو لم يتحمس حتى لصفقة قناة السويس ، وكانت تنقصه فعلا الارادة القوية والعزم الصادق مما جعل السفير الألمانى فى لندن يعتقد « أن الساسة الانجليز يعيشون من يوم الى يوم » ، ولا يفكرون فى المستقبل ، ويرى أن على انجلترا اذا كانت تريد المحافظة عى مركزها فى أوربا اما المحافظة على الممتلكات العثمانية بقوة السلاح كما فعلت فى حرب القرم أو تقسيم ممتلكاتها ، ونعى عليها موقفها فى ذلك الوقت ، فهو فى نظره موقف الضعف والتردد اذ لا هى جندت جنودها للدفاع عن تركيا ولا هى أنشبت أظفارها فى مصر كجزء من الغنيمة [2] .

فروسيا ما برحت مصرة على السيطرة على البحر الأسود ، فيجب اذن على الانجليز — كما ترى السياسة الخارجية الألمانية — المحافظة على مصالحهم فى البحر الأبيض المتوسط ، ولن يصلوا الى هذه الغاية الا باحتلال مصر .

وربما كان هناك رأى فى لندن ، ويصح أن يكون رأى بيكونز فيلد نفسه وهو أن تشترى انجلترا مصر من الباب العالى وأن تعوض السلطان عن الجزية التى تقوم مصر بدفعها سنويا . ولقد أبلغ ديزريلى الملكة فكتوريا يوما بأن ليس لدى الباب العالى مانع من بيع سيادته على مصر وكريت وقبرص [3] . ويظهر أن جلادستون كان على علم بهذه الحركة وانتقدها انتقادا لاذعا ، كما انتقد شراء ديزريلى لأسهم الخديو فى قناة السويس من قبل . ولقد انتشرت اشاعات عن هذه الحركة الى درجة

(١) المصدر السابق وروبس Reuss السفير الألمانى فى فينا إلى بزمرك ١٠ يوليو سنة ١٨٧٧

(٢) المصدر السابق إلى بزمرك ٢٨ يونيو ١٨٧٨

(٣) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩

أن اضطر رئيس الحكومة الانجليزية الى أن يطمئن فرنسا من هـــذه الناحية (١) ، وأهملت هذه الفكرة اهمالا تاما بعد ذلك .

ويعلم الساسة الألمان جد العلم أنه اذا احتلت انجلترا وادى النيل فسيكون لذلك بلاريب أعمق الأثر وآلمه فى فرنسا . ولذا فالحكومة الفرنسية لن تتنازل عن مطالبها وعمالها من نفـــوذ فى البحر الأبيض المتوسط الا اذا ضمن لها الانجليز زيادة نفوذها فى بحر الشمال ، وذلك بأن توافق الحكومة البريطانية على ضم بلجيكا لفرنسا وتعويض ألمانيا بهولندا لحفظ التوازن الدولى فى أوربا ، وهذا مالم تكن حكومة لندن تستطيع أن تقبله بأى حال من الأحوال .

ولقد وجد من رجال الدبلوماسية الانجليزية من يعضد وجهة النظر الألمانيـــة فالسفير الانجليزى فى برلين لورد رســـل **Odo Russell** يحبذ أخذ الانجليز لمصر ، ويرى فى ذلك حلا طبيعيا وسليما ومريحا للمسألة الشرقية ، ولاريب فى أن الرأى العام الانجليزى فى سنة ١٨٧٨ كان قد تحول الى تعضيد هذا الرأى ، وكان فريق من أفراد العائلة المالكة الانجليزية يرى من بداية الأمر انتهاز هذه الفرصة ، فرصة اشتعال المسألة الشرقية لامتلاك مصر فلقد كتبت أل **Crown Princess** الى الملكة فكتوريا فى ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ رسالة تقول فيها : « ان كل من يحب انجلترا يرى ضرورة اغتنام هذه الفرصة ، ووضع أقدامنا فى مصر » (٢) على أن أودو رسل كان يشكو دائما من أنه لا يوجد عضو واحد فى الوزارة الانجليزية يأخذ بفكرته أو يرى قريبا منها ، وذلك خشية عداوة فرنسا .

فلقد كان موقف وادنجتون **Waddington** وزير الخارجية الفرنسية فى

---

(١) كان أول من كشف عن هـــذه الحركة الأستاذ سيتون واطسون ، كشفها فى الوثائق الروســـية ، ويذكر الأستاذ أن اتهامات جلادستون غير صحيحة لأن زميله فى حزب الأحرار لورد جرانفل يعلم جيدا أن ديزريلى لم يحاول إجراء صفقة شراء مصر ، أنظر المصدر السابق وصفحات ٣٩٠ ، ٣١٠ منه

(٢) الوثائق الألمانية هو هنلوة إلى بزمرك ١٥ مارس سنة ١٧٧٨

ربيع سنة ١٨٧٨ صلبا لايتغير فى هذه المسألة . فالركن الأول فى أساس سياسته هو منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن . ولذا فقد أعلن اعلانا لا يشوبه غموض ، وذلك عند دخوله الوزارة بأنه لن يقبل أبدا احتلال الانجليز لوادى النيل . وكما يقول السـفير الألمانى فى باريس برنس هوهنلوه Hohenlohe ان جانبا كبيرا من الرأى العام الفرنسى كان يعضد وادنجتون فى هذه المسألة بالذات ، ولو أن حملة الأسهم الفرنسيين ربما كانوا يفضلون احتلال الانجليز لمصر ، ويرون فى ذلك الاحتلال خير ضمان لحقوقهم (١) . ولقد اتبع الوزير الفرنسى بدقة السياسة التى أعلنها ، ولم ينحرف عنها فلم يقبل اشتراك الحكومة الفرنسية فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ الا اذا اقتصر عمل المؤتمر ومناقشاته على معالجـة الموقف السياسى الذى نشأ عن معاهدة سان استفانو بين الباب العالى وروسيا ، وأصر على ضرورة موافقة الدول العظمى على ألا تعرض مسـألة مصر وتونس وسوريا على بساط البحث فى المؤتمر بأى حال ، وفعلا وجدت الفكرة موافقة تامة من كل الدول (٢) .

ولكن منستر السفير الألمانى فى لندن ظل يردد الفكرة الألمانية على اسماع لورد بيكونز فيلد ووزرائه ، وخاصة على وزير الخارجية الجديد سولسبرى Salisbury لأن منستركان يعلم جد العلم أن الوزير الجديد من أكبر دعائم الامبراطورية منذ كان وزيرا لشئون الهند ، وأن له همة ونشاطا ليسا لسابقه لورد داربى الذى استقال عقب نزاع شديد ثار بينه وبين رئيس الوزارة ، وأن للوزير الجديد رأيه الخاص فى مسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها ، فهو عديم الثقة بها ميال الى تقسيمها والعمل على انحلالها ، ويرى أى سولسبرى أن بقاءها مهزلة من مهازل السياسة لا ينبغى استمرارها ، ويعتقد أن السياسة البريطانية القديمة فى المحافظة على

---

(١) نفس المصدر بيلوف إلىمنستر ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، بيلوف إلى هو هنلوه ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، Documents Diplomatiques Français. الجزء الثانى .

بقاء الدولة العثمانية وكيانها سياسة عديمة الجدوى ، لا غناء فيها ، ولا تتفق والوقت ، وهو يحرص على الاتفاق مع روسيا أكثر مما يميل الى الحرب معها • ولقد كان سولسبرى منذ توليه الشئون الهندية دائم التفكير فى المحافظة على مصالح انجلترا لا بحماية تركيا من الخطــر الروسى ، وانما بالاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة العثمانية التى تضمن لانجلترا سلامة امبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الى الهند ، فهو كما يقول للورد لتون Lytton « ان سياستنا الخارجية تنقصها الجرأة والخطة المرسومة » ، وأن المحافظة على الطريق الى الهند لا تكون الا بأخذ مصر وكريت وبالاشتراك فى القضاء المبرم على تركيا [1] •

ولذا فموضوع مصر من المسائل التى يشوق سولسبرى التفكير فيه والمناقشة مع السفير الألمانى ، ولكنه حين كان يخلو الى بقية أعضاء الوزارة كان دائما يجدهم غير ميالين الى أخذ مصر ، فكما يقول منستر ان هناك مسألتين تمنع زملاءه من التفكير جديا فى مسألة أخذ مصر : أولاهما التعقيدات والتضحيات المالية ، وثانيهما عدواة فرنسا ، ولكن السفير الألمانى كان قــد تكهن بما يدور فى خلد الوزارة الانجليزية ، ولذا فهو يجيب بأن هذه المصاعب مبالغ فى تقــديرها دون ريب ، فموارد مصر المالية متى أديرت ادارة حسنة تحت رعاية انجلترا وتحت اشراف موظفين انجليز فانها تستطيع القيام بكل التعهدات المالية التى ارتبطت مصر بها • وأن الدائنين الفرنسيين يهمهم قبل كل شىء أن تسدد ديونهم وتدفع فوائدها ، ولا يأبهون كثيرا لذكريات فرنسا التاريخية أو لما تدعيه من أعمال مجيدة فى مصر ، ثم ما الذى يجعل الانجليز يظنون أن هدف فرنسا هو مصر ، فهدف فرنسا الحقيقى هو تونس لكى تستطيع حماية مصالحها فى الجزائر • ثم بعد ذلك ما الذى تستطيعه عداوة فرنسا ، فهل تستطع فرنسا فى الوقت الحاضر اعلان الحرب على انجلترا من أجل مصر ؟

---

(١) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٢١٩

ولما وجد سولسبرى عدم اتفاق زملائه فى الوزارة على مسألة احتلال مصر اضطر غير راض الى ترك هذا المشروع ثم من ناحية ثانية سولسبرى نفسه كان دائما كبير الاهتمام بصداقة فرنسا ، وخاصة فى الوقت الذى تخلت فيه ايطاليا عن مساعدة انجلترا فى المسألة الشرقية ضد روسيا (١) ، فسولسبرى يؤمن بضرورة تعاون الدولتين الغربيتين فى كل ما يختص بمسائل البحر الأبيض المتوسط ، بل لقد أصبح ذلك التعاون أمرا حيويا بالنسبة لانجلترا ، طالما كانت تبغى ألا تنضم فرنسا الى المعسكر الروسى . ومن الأسباب الأساسية التى جعلت الحكومة الانجليزية لا تأخذ بالعرض الألمانى هو تشككها فى سياسة بزمرك ، فكانت تخشى دائما أن يكون المستشار الألمانى قد عرض مصر على فرنسا لتعويضها عن الألزاس واللورين فى نفس الوقت الذى عرضها على انجلترا .

وظل موقف ألمانيا بالنسبة لانجلترا فى هذه المسألة كما هو ، ظل موقف الصداقة والتأييد ، ولذا حين تعقدت الظروف بعض الشىء بين فرنسا وانجلترا أعلن بزمرك السفير الانجليزى لورد أودورسل بأنه مستعد لتأييد بريطانيا العظمى « لأنه من مصلحة ألمانيا أن يتفوق نفوذ انجلترا على نفوذ فرنسا فى مصر » ، وهو مع ذلك ماض فى تأييده للتعاون بين الدولتين(٢). وحين أرادت الحكومة النمسوية المجرية استغلال صداقة ألمانيا ، فطالبت بأن تشترك مع الحكومتين الفرنسية والانجليزية فى الاشراف على شئون مصر ، أشار اليها بزمرك بأدب بأن مصالح انجلترا وفرنسا أضعاف مصالح ألمانيا والنمسا ، وأن هذه المصالح تبرر فى نظره مركزهما المفضل فى مصر ونفوذهما الممتاز ، وأنه يفضل أن يوكل الى انجلترا وفرنسا أمر

(١) لما استفحل الخطر الروسى فى أوائل سنة ١٨٧٨ فكرت إنجلترا فى إنشاء عصبة من دول البحر الأبيض المتوسط تكون غايتها منع امتداد النفوذ الروسى إلى ذلك البحر ، وعرضت الفكرة على ايطاليا فرحبت الحكومة الايطالية فى أول الأمر بالمشروع ثم نكصت على عقبيها . أنظر للمؤلف Tunis and the Great Powers الفصل الخاص بالعلاقات الانجليزية الايطالية .

(٢) Winfred Taff Ambassador to Bismarck, Lord Odo Russell ص ٣٠٦

حماية مصالح رعاياه فى مصر ، على شرط أن تقوم هاتان الدولتان بحماية مصـــالح الدول الأخرى على قـــدم المســـاواة مع مصالحهما وبنفس الاهتمام[1] .

ولقد أيد المستشار الألمـــانى انجلترا وفرنسا تأييدا لايعتريه خور ولا وهن فى موقفهما ضد الخديو اسماعيل فى أوائل سنة ١٨٧٩ حين تحدى أوربا وأراد التخلص من العنصر الأجنبى ، فأرسل انذارا الى مصر زلزل مركز الخـــديو ، ووافق على فكرة الدولتين فى طلب عزل الخـــديو بالرغم من أن كلا من روســـيا وايطاليا كان يعترض على حق الدولتين فرنسا وانجلترا فى طلب تخلى الخديو عن عرشه ، فهذا تدخل صريح فى شئون مصر لايتفق والعرف الدولى ، ولكن تأييد بزمرك وعدم اكتراثه بما لاسماعيل من حقوق جعل معارضة روسيا وايطاليا لاقيمة لها ، فغادر الخديو اسماعيل مصر حزينا ، وتولى شئونها الخديو توفيق .

وتعقدت المسألة المصرية من الناحية الدولية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، وأنذرت الثورة العرابية بخطر مستطير ، فثبتت ألمانيا على موقفها فى أن ليس لها مصالح مهمة فى وادى النيل تدعوها للتدخل مباشرة وظلت متمسكة برأيها فى الاعتراف بمركز انجلترا وفرنسا الممتاز فى وادى النيل[2]. فكما يقول لورد أودو رسل عن بزمرك « انه (أى بزمرك) راغب فى منح تأييده لأية سياسة تتفق عليها انجلترا وفرنسا فى مصر ، لأنه يرى فى ذلك الاتفاق الفرنسى الانجليزى أساسا للسلام والنظام فى أوربا ، ويرى فوق ذلك أن تنضم ألمانيا الى جانب ذلك الاتفاق بتأييده وتعضيده[3] .

---

(١) الوثائق الألمـــانية دكتور بوش Busch فى وزارة الخارجية الألمانية إلى ولى عهد ألمانيا ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر بزمرك الى رادوفيتس Radowitz ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩

(٣) وكان الأتراك بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ قد لجأوا الى ألمانيا ابتغاء النصح والحماية وقابلت برلين ذلك الود بمثله وأجابت بعض طلبات الاتراك الخاصة بإرسال بعض الموظفين =

وحين لجأت وزارة الأحرار وعلى رأسها جلادستون الى ألمانيا لتتعرف موقفها ازاء الثورة العرابية كان رد بزمرك بأن انجلترا أعلم بما يجب أن يكون عليه موقفها ازاء ذلك التعقيد فى المسألة المصرية ، لكنه بين فى نفس الوقت أن سياسته كسياسة انجلترا ، فمن مصلحة الدول جميعا — كما يعترف هو — المحافظة على الموقف السياسى الراهن فى مصر وتعضيد سلطة الخديو . فبين جرانفل Granville وزير الخارجية أن الحالة فى مصر خطرة ، فوفقا لتقارير قنصل انجلترا الجنرال فى القاهرة الخديو متشائم من سير الأمور الداخلية ، وأنه يائس جدا من استقامة الأحوال ، ولذا فالحكومة الانجليزية مصممة على تقوية مركزه وشد أزره بأن تعلن الدول الكبرى جميعا له فى صراحة وجلاء تام عن رغبتها فى المحافظة على الحالة السياسية الموجودة ، ولذا فقد أصدرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية الى قنصليهما الجنراليين فى مصر بأن يبينا للخديو عن هذه الرغبة بمذكرة يناير المشهورة ، وذكر جرانفل أن فرنسا قد تعاونت مخلصة مع انجلترا فى هذه المسألة ، ولما وضح هربرت بزمرك أن ألمانيا لن تعترض على ما حدث ولكنها ترغب فى أن يوكل الى الاتراك أصحاب السيادة أمر المحافظة على النظام فى مصر (١) ، أجاب جرانفل اجابة قلقة مضطربة تدل على أحد شيئين : اما أنه يريد اخفاء خطة استنتها انجلترا ، واما أن الوزارة الانجليزية لاتزال غير متفقة فيما بينها على السياسة التى يجب اتخاذها حيال مسألة مصر ، ولذا فهو يردد بأنه مافتىء يعتقد أن اعادة النظام الى مصر على يد الأتراك هو خير الحلول الممكنة ، وأنه شر

= الألمان إلى الاستانة مما دعا الى تخوف السفير الانجليزى فيكتب الى جرانفل يقول :

"It is evident that the exchange of compliments. of presents, of diamonds and of assurances, of mutual respect and admiration has practically led to a state of real intimacy between Germany and Turkey which has never before existed and which gives the Sultan a welcome excuse for leaving his ways numended". March 22/1882.

Taffs: An Ambassador to Bismarck in J.O. 64. 1005. No. 102. عن ص ٣٥٨

(١) أنظر الصور السابق .

لابد منه ، على أن جرانفل لم ينس أن يذكر لابن بزمرك ومبعوثه فى لندن بأن ما صرح به هو رأيه الشخصى وأنه لا يزال لا يدرى اذا كان اخوانه فى الوزارة يشاطرونه هذا الرأى ، ثم أضاف بأن قيام انجلترا بالعمل وحدها فى وادى النيل ضرب من المحال ، وأن من المغامرة تعاون فرنسا وانجلترا فى القيام بعمل وحدهما ، وأن ترك الأتراك يتدخلون وحدهم لحفظ النظام والأمن فى مصر قد يؤدى الى صعوبة التخلص منهم فيما بعد . ولكن ميزة تدخل الأتراك وحدهم هو عدم وقوع التشاحن بين الدول الأوربية الكبرى من جراء مسألة مصر (١) .

ولقد لاحظ المبعوث الألمانى هربرت بزمرك تضارب أقوال جرانفل مما لايبشر فى نظره باستقرار الحكومة الانجليزية على رأى فى مسألة مصر . فهى حانقة غاضبة على الباب العالى لعدم قيامه بتنفيذ شروط معاهدة برلين كما يجب ، وهى فى حيرة من أمرها فيما يختص بمصر ، على أن ما كان يخشاه جرانفل قبل كل شىء هو أن تصبح مسألة مصر مسألة دولية ، هو تدخل الدول الكبرى فى مسألة مصر ، ولذا فهو يبين لألمانيا أن مثل ذلك التدخل ليس فى صالح السلام فى أوربا .

ولما كانت الحكومة الانجليزية ترى من المهم أن تتعاون فرنسا معها فى مسألة مصر ، هذا قوى من فكرة المستشار الألمانى بأن سياسة انجلترا الخارجية لا تزال تنقصها الحكمة وبعد النظر « بدرجة لا يوجد لها مثيل فى تاريخ انجلترا » ، فانجلترا كما يرى أصبحت مقيـــدة بسياسة فرنسا الخارجية ، فهى لا تفكر الا فى التعاون مع فرنسا والا فى صداقة فرنسا ، وهاله أن يرى « وزارة جلادستون تندفع من مغامرة لأخرى » ، فاذا كانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة الفرنسية على أن تكونا فى عزلة عن بقية دول أوربا بتدخلهما وحـــدهما فى مسألة مصر ، فان علاقات بريطانيا العظمى مع الدول الأوربية الأخرى التى لها مصالح فى الشرق لابد وأن تتأثر تأثيرا سيئا ، « وخاصة اذا حدث وساءت علاقة

---

(١) الوثائق الألمانية . هربرت بزمرك إلى ٧ يناير سنة ١٨٨٢

انجلترا بفرنسا لتباين مصالحهما » ، ولذا ففى آخر الأمر « فان انجلترا ستجد نفسها وحيدة منفردة فى أوربا لسياستها الحائرة المترددة » [1] .

وما كان بزمرك يثق فى حسن فهم جلادستون لشئون السياسة الخارجية ، وما كان يستطيع أن تقيم وزنا كبيرا لتصريحات جرانفل أو لآرائه الشخصية ، نظرا لضعفه وتردده وقلة حيلته . كما كان الشك يساوره دائما فى سياسة وزارة جمبتا الفرنسية ، ولذا فهو سياسته العامة الأوربية معتمد على الدول الامبراطورية النمسوية المجرية والروسية . أما فى مسألة مصر فهو لم يحد عن سياسته التقليدية التى تنطوى على عدم اثارة العراقيل فى وجه السياسة الانجليزية ، وان كان لا يروقه أن يرى الحكومة الانجليزية تتبع ظل الحكومة الفرنسية .

ولكنه كان حريصا وخاصة بعد سقوط وزارة جمبتا الفرنسية فى أول شهر فبراير سنة ١٨٨٢ على أن يؤيد الخطوات التى تقوم بها الدولتان الغربيتان ، على شرط أن تحوز هذه الخطوات موافقته ، وان كان يفضل المحافظة على الحالة السياسية الراهنةفى مصر ، وكان يعضد وجهة النظر هذه الدول الشمالية الروسيا والنمسا ، فهو لذلك ينصح بتدخل السلطان وحده ولكنه بين مع ذلك أنه لن يعارض اذا تدخلت الدول الأوربية الكبرى جميعها متعاونة ، وأسر الى الانجليزفى فترات بأنه سيحاول ارضاءهم بقدر المستطاع بالرغممن ارتباطه مع الدول الشمالية ، ولذا يبعث أودورسل السفير الانجليزى فى برلين بوثيقة سرية الى حكومته مؤرخة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢ يقول فيها :

Dr. Busch has told me "privately and confidentially" that although Prince Bismarck had not felt at liberty to separate himself officially and depart from the attitude assumed by Count Kalnoky and M. Giers in regard to sending instructions to their representatives at Constantinople, His Highness has nevertheless instructed him

---

(١) نفس المصدر هاتسفلت Hatzfeldt فى برلين إلى رويس السفير الألمانى فى فينا ١٥ يناير سنة ١٨٨٢

to speak privately to the Turkish Ambassador Sadoullah Pasha in the sense desired by your lordship and that he had already done so, and recommended him to advice his government not to exaggerate the effect of the naval demonstration but to abstain from interference and confide implicitly in the policy and good intentions of England and France. (1).

ولقد اطلع بزمرك حلفاء على وجهة النظر هذه ، وأيد ابحار أسطون الدولتين للمحافظة على الأمن والنظام فى مصر وتعضيد سلطة الخديوى على حسب الفرمانات التى اعترفت بها دول أوربا (٢) .

ولم يكن بزمرك مرتاحا الى رغبة الحكومة الانجليزية فى أن تطلب من الباب العالى ارسال جنوده الى مصر لاعادة الهدوء اليها . فلم يكن يعضد فكرة اصدار أوامرها للحكومة العثمانية ، فهو يرى فى ذلك انتقاصا كبيرا لحقوقها وتحديدا لسلطتها لا مبرر له ، ولقد أبدى السفير الانجليزى فى برلين أسفه لذلك الموقف الذى ربما سبب كثيرا من المتاعب لما لألمانيا من كلمة مسموعة لدى كثير من الدول الأخرى ، ولقد أجاب هاتسفلت على ذلك ، وكان قائما بأمور وزارة الخارجية الألمانية ، بأن فرنسا لا تؤيد انجلترا فى مطلبها الخاص بارسال الباب العالى لجنوده الى مصر ، وأسر الى السفير الانجليزى بأن بزمرك لن يقبل الاشتراك مع الانجليز فى الانتقاص من حقوق السلطان أو من سيادته ، ويرى أن الحل الوحيد للصعوبة الحالية هو ترك السلطان يفصل فيها بطريقته الخاصة ، فالأتراك لهم وسائل ناجعة فى تسوية مثل هذه المشاكل .

---

(١) F.O. 64. 1006. No. 169. عن Taffs: Ambassador to Bismarck صفحات ٣١٠، ٣١١ . دكتور بوش كان من كبار موظفى وزارة الخارجية . كونت كالنكى وزير الخارجية للامبراطورية النمسوية المجرية .

مسيو دى جيرز وزير الخارجية الروسية . ما يقصد بالمظاهرة البحرية المظاهرة البحرية التى قامت بها انجلترا وفرنسا فى ميناء الاسكندرية .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٩١ رسل إلى جرانفل ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 188.

"The Turks had a way of their own of pacifying their coreligionists they gave their agents a sword in one hand, and a bag full of decorations in the other, money in every pocket and told them to make the best of their chances. (١)

ولما سأل رسل ، السفير الانجليزى ، عن الوسائل التى يمكن بهـا التخلص من الأتراك بعد ذلك ، أجاب هاتسفلت بأن هذه المسألة موكولة للمستقبل ، وأن قناصل روسيا وألمانيا والنمسا وايطاليا قد سجلوا فى تقاريرهم أن هذه الطريقة هى خير الطرق التى يجب الأخذ بها لحل المشكلة المصرية ، لأن التدخل الحربى حتى ولو كان عثمانيا سيؤدى فى آخر الأمر الى كوارث ، وأضاف الى ذلك قائلا ان كل مايهم ألمانيا هو السلام وعدم وقوع حرب من أجل مسألة مصر ، « وان البرنس بزمرك يكون سعيدا لو استطاع نفض يديه من كل المسائل الشرقية ، ولكنه كعضو فى التآلف الأوربى مضطر الى تأييد الدول التى يهمها ذلك الموضوع فى الوقت الذى تجد نفسها متفقة فيه ، فسياسته هى عدم توسيع شقة الخلاف بين الدولتين انجلترا وفرنسا ، وانما هى العمل على تعاونهما والتوفيق بينهما لأنه يرى السلام والمصلحة فى ذلك » .

"Prince Bismarck had always agreed that a difference of opinion with regard to Egypt was inevitable and his earnest wish was not to foster such differences, when they sprang up, by favouring one Government more than the other, but on the contrary to contribute as far as was in his power towards the continuance of the Anglo-French Alliance, which he has always welcomed as a guarantee of peace in Europe. (٢)

وعلى أى حال قبل بزمرك الاشتراك فى مؤتمر الاستانة الذى انعقد من الدول الكبرى لمناقشة المسألة المصرية ومعالجتها ، ولو أنه كان لايؤمن كثيرا باستطاعة المؤتمرات حل المشاكل الدولية مالم تتفق الدول صاحبة الشأن على حل هذه المشاكل من قبل . ولذا لم يكن كبير الأمل فى نجاح

(١) J. O. 64. 1006. No. 212 رسل الى جرانفل ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢

(٢) F.O. 64. 1006 No. 212. رسل إلى جرانفل ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢

ذلك المؤتمر • وجدت الحكومة الألمانية أن فرنسا لم تكن بكبيرة الرغبة فى نجاح ذلك المؤتمر لأن فكرته الأساسية لم تلق ترحيبا فى باريس ، فالحكومة الفرنسية كانت عاقدة العزم على مناهضة كل مبدأ يقول بتدخل الأتراك الحربى فى مصر خشية ازدياد قوة الاسلام فى شمالى افريقية ، الأمر الذى يعمل دون شك على اضعاف مركزها فى الجزائر وفى البحر الأبيض المتوسط ، وأيقنت ألمانيا أن المؤتمر سيفشل فى خطواته ، لأنها أى ألمانيا لم تكن مستعدة لانتداب الدولتين الغربيتين انجلترا فرنسا لحل مسألة مصر وانتقاص ما للسلطان من حقوق فى هذه البلاد ، وان لم تكن تعارض فى قيام — الدولتين اذا أرادتا — بارجاع النظام الى مصر على مسئوليتهما الخاصة ، فألمانيا لم ترد أخذ دور ايجابى فى المسألة المصرية • وكانت ألمانيا ترى أن ارسال الدولتين لأسطولهما الى مياه الاسكندرية كان سببا فى حدوث المذبحة المشهورة وفى اثارة العسكريين المصريين الى اقامة التحصينات والى الاستعداد للحرب ، ولكن ألمانيا بالرغم من ذلك لم تقم باثارة عراقيل فى وجه الانجليز ، ولم تقتصر على ذلك بل لقد عملت على الوقوف أمام محاولة روسيا تكوين حلف من بعض دول أوربا للاحتجاج على سلوك انجلترا فى مصر ، وذلك بعد ضرب الأسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وهنأت الانجليز على نجاح عملياتهم الحربية •

ولما احتلت انجلترا قناة السويس فأثارت جانبا من الرأى العالمى ضدها ، كان موقف ألمانيا الصريح فى تأييد انجلترا عاملا على تهدئة الخواطر فى أوربا نحو بريطانيا وخفوت صوت المحتجين • ولما كانت مصالح ألمانيا فى قناة السويس تجارية قبل كل شىء وليست سياسية ، لم تعارض السياسة الانجليزية ، وان كانت لم توافق على طلب الحكومة الانجليزية الاشتراك معها فى ضمان حرية الملاحة فى القناة • ولم تناصر ألمانيا الجهود التى قامت بها بعض الدول الكبرى لتطلب من انجلترا تفسير أعمالها وتوضيح موقفها ، بل لقد اقتصرت على ارسال هربرت بزمرك الى لندن ليقف على سياسة انجلترا الجديدة ازاء المسألة المصرية •

ولما جاء أمر تنظيم انجلترا لشئون مصر أعلن بزمرك للورد جرانفل أن الحكومة الألمانية لن تثير صعوبات أو متاعب أمام انجلترا فى هـذه الناحية • ولما ثارت المناقشة بعد ذلك فى أمر مصير مصر ساء بزمرك أن يجد الوزراء الانجليز غير متفقين فيما بينهم على السياسة التى يجب أن تتبع مضطربى الأعصاب قلقين كلما ذكرت دولة أجنبية اسم مصر • ولكن المستشار الألمانى ظل على ولائه لسياسته القديمة التقليدية • ولم يخلف على الحكومة الانجليزية المترددة أنه على استعداد الى حد للموافقة على ضم مصر الى الممتلكات البريطانية اذا أراد الانجليز ذلك ، وان كان ينصح بأن من الخير لهم لو وطدوا أقدامهم فى مصر تحت سيادة تركيا ، وبذا لا يضعف مركز السلطان فى العالم الاسلامى ، ولا ينال تركيا الهزال والانحلال ، وبذا لا تجعل انجلترا من السلطان عدوا مبينا لها فتنفتح الباب واسعا أمام دسائس الدول الأوربية المعادية لها ، أما اذا اتبعت انجلترا سياستها التقليدية القديمة ، سياسة التحالف مع السلطان ، فانها تعزز مركزها فى مصر وتركيا ، وتحكم مصر من القاهرة والأستانة معا ، ويكون انتفاعها أكبر ، بل سيكون هذا عاملا على تيسير الأمور لبريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط ، ولعل بزمرك كان يرمى من وراء ذلك عدم اعطاء روسيا فرصة للاتفاق مع فرنسا على محاربة نفوذ انجلترا فى مصر والشرق الأدنى ، كما أنه لم يكن يرمى الى تمهيد الطريق أمام الباب العالى للانضمام الى جانب فرنسا •

اقترح المستشار الألمانى اذن ابقاء مصر تحت السيادة العثمانية ، ولكنه اقترح بجانب ذلك أن يجعل الانجليز من وظيفة قنصلهم الجنرال فى مصر وظيفة مشابهة لوظيفة المقيم العام الفرنسى فى تونس • ولعله كان يبغى أن يعرف من وراء ذلك الاقتراح مدى رغبة الانجليز فى التسلط على مصر ومدى رغبتهم فى محاكاة الوسائل الفرنسية فى الحكم الامبراطورى الاستعمارى • ووافق جرانفل على الفكرة الأولى بابقاء مصر تحت السيادة العثمانية بالرغم من وجود جيش الاحتلال ، لأن الفكرة وجدت هوى فى

نفسه ، لأنها صادرة من ألمانيا ، ولن تستطيع انجلترا فى ذلك الوقت القضاء على السيادة العثمانية دون أن تستهدف لغضب ألمانيا وسخط الدول الأخرى . فلقد نجحت تركيا فى التقرب من ألمانيا الى حد أن المستشار الألمانى وافق على ارسال بعثة حربية الى الآستانة لتنظيم الجيش العثمانى ، ومن ناحية ثالثة سيثير القضاء على السيادة العثمانية مشاكل لاعداد لها ، وربما فتح باب المسألة الشرقية كلها من جديد .

ولكن جرانفل اعترض على الفكرة الثانية « بأن انجلترا لن تذهب إلى هذا الحد ، ولن تستطيع تطبيق وسائل فرنسا فى تونس على مصر وقناة السويس » [1] . ولم يبين جرانفل أى نظام ستتبع انجلترا فى مصر ، ولكنه ذكر أن انجلترا ستجعل المرور فى القناة حرا لجميع الدول فى وقت السلم والحرب ، فانجلترا لن تفرض « نظام الحماية على مصر » ، ولكن وزير الخارجية الانجليزية أحب أن يتحسس رأى بزمرك فى أمر مصير مصر ، فقال المستشار الألمانى « انه ترك أيدى الانجليز حرة فى وادى النيل » يفعلون ما شاءوا .

ولما أشار جرانفل الى موقف فرنسا العدائى ومناهضتها لسياسة انجلترا ، مما قد يكون له كبير خطر على مركز الانجليز ، كان بزمرك يهون من خطر الموقف ، ويذكر للحكومة الانجليزية أنه طالما كانت ألمانيا قوية مهيبة الجانب ، وطالما كانت صديقة لانجلترا ، فلن تستطيع الجمهورية الفرنسية التحرش جديا بانجلترا ، ولن تستطيع أن تذهب الى حد اعلان الحرب عليها ، فدستورها وحالتها الحربية لاتسمحان لها بذلك ، وخاصة وأن ألمانيا واقفة لها بالمرصاد ورقيب على حركاتها عتيد .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تتقرب من ألمانيا فى مسألة تقرير حرية المرور فى القناة ، لأن هذا هو كل ما يهم ألمانيا فى نظر انجلترا ، وطلبت كذلك اشتراك ألمانيا فى ضمان حرية الملاحة فى هذه القناة ، ولكن المستشار الألمانى ما كان يريد التورط فى مسألة مصر أو القناة ، فيبين

---

(١) الوثائق الألمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك فى (لندن) أكتوبر سنة ١٨٨٢

لانجلترا أن ألمانيا كدولة تجارية ترحب بلاشك بمبدأ حرية المرور فى القناة ، ولكنها غير مستعدة للذهاب الى حد الاشتراك فى ذلك الضمان ، لأنه ربما اعترضت على هذا المبدأ احدى الدول البحرية الكبرى ، وألمانيا غير مستعدة للدخول فى حرب من أجل مصر أو القناة (١) •

وقدرت انجلترا حق التقدير موقف التأييد العظيم الذى وقفته ألمانيا فى المسألة المصرية ابان اشتداد أزمتها • فشكر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الألمانية ، وكرر زملاءه ذلك الشكر أكثر من مرة ، فلقد أعلن هاركورت Harcourt أحد أعضاء الوزارة « بأنه الى ألمانيا وحدها يرجع الفضل فى جعل يد الانجليز حرة فى مصر ، فلقد كان فى وسع بزمرك أن يقلب العربة بانجلترا » (٢) •

ولقد ظل موقف ألمانيا فى سنة ١٨٨٣ واحدا لايتغير ، ولكن الظروف السياسية تغيرت تغيرا واضحا فى سنة ١٨٨٤ ، ففى هذه السنة تكونت الجمعية الاستعمارية الألمانية وتأسست الصحيفة الاستعمارية

لم تكن للدولة الألمانية سياسة استعمارية فى السنوات التى سبقت هذه السنة ، فلقد كان بزمرك راغبا عن الاستعمار ، ويرى أن الوقت غير مناسب ، وأن جهود ألمانيا السياسية يجب أن توجه الى توطيد دعائم وحدتها السياسية والى بناء مركز متفوق لها فى أوربا • كان يرى أن نشاط ألمانيا يجب أن يتركز فى أوربا وعلى حدود ألمانيا الغربية بصفة خاصة طالما لم تنس الحكومات الفرنسية الرغبة فى الانتقام واسترداد الولايتين المفقودتين الالزاس واللورين ، واطمأن بزمرك الى مركز ألمانيا فى أوربا بعد توطيد علاقاته مع امبراطورية النمسا والمجر نهائيا فى سنة ١٨٧٩ ، ومع روسيا فى ربيع سنة ١٨٨١ ، ومع ايطاليا فى ربيع السنة التالية ، فلا خوف اذن على تفوق الدولة الألمانية فى أوربا •

---

(١) الوثائق الألمانية شتوم Stum قائم بالأعمال فى لندن إلى هربرت بزمرك ٣١ اكتوبر سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصور هربرت بزمرك الى بزمرك ١٤ يناير سنة ١٨٨٣

فظهر حينئذ عامل جديد فى السياسة الخارجية الألمانية ، وخاصة بعد أن نمت الصناعة الألمانية وأخذ الانتاج الكبير يلعب دوره ، وتبع تقدم الصناعة الألمانية نمو التجارة بسرعة هائلة ، وظهر تجار من برمن وهمبرج على شواطىء أفريقية والمحيط الهادى ، وانتشرت البعثات الدينية الألمانية فى أرجاء العالم ، وزاد الحماس واشتد التمسك بالقومية الألمانية بعد انتصاراتها الباهرة فى سادوا وسيدان ، وبعد تفوقها السياسى فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، فالاعتزاز بالقومية الألمانيــة كان من العوامل التى دفعت بالألمان الى الاستعمار ، وتفوق مركز ألمانيا السياسى فى سنة ١٨٨٢ هو الذى جعل بزمرك يعيد النظر فى موقفه ازاء الأمبريالزم ، ووجد التجار الألمان من الشجاعة والمصلحة أن يستقروا فى المحطات التى أنشأوها فى جنوب أفريقية والمحيط الهادى ، وأصبح المستشار الألمانى يجد ألا غنى لألمانيا عن الاستعمار ، وازداد اهتمامه به حتى اعتبره مسألة حيوية بالنسبة لألمانيا ، ولذا كان على قدم الاستعداد لأن يجعل من مسألة الاستعمار محكا لعلاقاته بالدول الأوربية الكبرى ولا سيما الاستعمارية منها ، ولذا فهو مستعد لتضــحية علاقاته الودية بانجــلترا اذا قاومت مشاريعه الاستعمارية ، وهذا يفسر لنا موقفه ازاء انجلترا فى مصر سنة ١٨٨٤ .

لقد خشى الانجليز أن تفكر ألمانيا تفكيرا جديا فى الاستعمار ، وهالها تقدم التجار الألمان والبعثات الدينية الألمانية ، وأصبحت ترى فى الألمان منافسا خطيرا قويا ، فأخذت وزارة جلادستون التى كانت لا تزال تتولى الحكم فى انجلترا فى أوائل هذه السنة فى وضع العراقيل أمام المستعمرين الألمــان فى غربى أفريقية وجزائر فيجى وســاموا ، وهاجمت الصحافة الانجليزية بعنف السياسة الألمانيــة الاستعمارية ، فثارت لذلك ثائرة الامبرياليين من الألمان ، بل هاج الرأى العام الألمانى ، وأخذت الصحافة الألمانية تهاجم فى مقالات قوية السياسة الانجليزية والصحافة الانجليزية، وغضب بزمرك غضبا شديدا، واتخذ من مسألة مصر ذريعة يهدد بها انجلترا .

وبعث الى منستر سفيره فى لندن فى ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ ، يطلب منه أن يذكر الانجليز بموقف ألمانيا نحوهم فى مسألة مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وأن يبين لهم كيف لم تحتج ألمانيا على ضرب الأسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وكيف لم تقف الحكومة الألمانية حجر عثرة فى سبيل احتلاهم لمصر ، وكيف لم تناقش مركز انجلترا الممتاز فى وادى النيل والشرق الأدنى الاسلامى ، وكيف لم تثر صعوبات أمام ما اتخذته الحكومة الانجليزية فى مصر من خطط ، وكيف أن الحكومة الانجليزية شكرت الحكومة الألمانية شكرا جما على موقف التأييد هذا المنقطع النظير.

ولذا فألمانيا لها الحق فى أن تنتظر رد الجميل ، وأن تنتظر من الانجليز ألا يقفوا حائلا أمام حقوق الرعايا الألمان فى فيجى ، ولوح بزمرك بالتهديد والوعيد اذا عرقلت انجلترا تحقيق المطامع الألمانية فان الحكومة الألمانية ستدرس موقفها من جديد ازاء وزارة جلادستون وخاصة ازاء السياسة الانجليزية فى مصر [1] .

ولقد ذكر بزمرك الانجليز بمركزهم المتزعزع فى أوربا ، وبين لهم ألا خوف على انجلترا فى هذه القارة الا من فرنسا ، وفى آسيا الا من روسيا . ولن يكون عداء فرنسا ذا قيمة أو خطرا على انجلترا الا اذا ضمنت فرنسا حياد ألمانيا ، وأن الحكومة الألمانية مستعدة من ناحيتها للثبات على سياستها الودية حيال انجلترا فى مصر ، كما أنه ليس من الصعب على ألمانيا أن تحسن علاقاتها بأعداء انجلترا [2]. وأن انجلترا يجب أن توقن بأنها لاتستطيع الاعتماد على صداقة الحكومة الألمانية أو حيادها أو تأييدها فى حالة اعتداء فرنسا أو روسيا عليها الا اذا أرضت المطامع الألمانية كاملة .

ومضى بزمرك يعلن للانجليز بأنهم اذا ناقشوا حق ألمانيا فى الاستعمار

---

(١) الوثائق الألمانية بزمرك إلى منستر ٤ أبريل سنة ١٨٨٤

(٢) نفس المصدر بزمرك الى منستر ٥ مايو سنة ١٨٨٤

فان من حق ألمانيا أن تناقش انجلترا فى حقها فى مصر ، ونعت سياسة انجلترا بأنها سياسة أنانية ساذجة naïve egoism ، وقال انه اذا استمرت الحكومة الانجليزية سادرة فى غلوائها كان ذلك « امتهانا لشعورنا القومى » ، وانتقد تصرفات وزارة جلادستون وعملها على اثارة المستعمرات الانجليزية فى أفريقية على السياسة الألمانية ، وبين أن انجلترا تتمحل الأعذار لكى ترى أن المعارضة لم تأت من جانبها ، ولكن من جانب المستعمرات ، وقال ان استقلال المستعمرات فى تدبير شئونها الخارجية مهزلة لا تصدق .

وكانت المسألة فى نظره خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات القادمة فى ألمانيا تحتم عليه أن يبين رأى الحكومة صراحة فى الاستعمار اذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألمانى لها .

ولما ثارت مسألة مصر من جديد ، وخاصة حين لم تصل المفاوضات الانجليزية الفرنسية بشأن الاصلاح المالى الى نجاح ، أيدت ألمانيا بحماس وجهة النظر الفرنسية ، وأكد هربرت بزمرك مبعوث المستشار الألمانى فى لندن لوزير الخارجية الانجليزية بأن لألمانيا مصالح مهمة فى مصر تصل الى مائة مليون مارك ، وحين أبدى جرانفل دهشته من هذه الملاحظة ، وقال ان الحكومة الألمانية قد قررت منذ زمن قريب بأن ليس لها مصالح مهمة فى مصر ، أجاب المبعوث الألمانى بأن الأوقات قد تغيرت ! وأخذت الصحافة الألمانية تنتقد بشدة سياسة انجلترا فى مصر ، وتدحض ماتدعيه انجلترا من حقوق فى هذه البلاد وفى احتلالها ، وكان بزمرك نفسه يمد الصحافة بالمقالات العنيفة ضد انجلترا (١) .

وكان موقف بزمرك فى مسألة مصر داعيا لأن تعيد الحكومة الانجليزية التفكير فى موقفها ازاء الاستعمار الألمانى ، وكما يظهر لم يكن كل أعضاء الوزارة الانجليزية يشاركون جرانفل رأيه فى عرقلة المشاريع الألمانية .

---

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١٦ يونيو سنة ١٤٨٨

ومن بين هؤلاء شخصية فذة سيكون لها أثر عظيم فى توجيه الاستعمار الانجليزى وجهته المعاصرة ، وهى شخصية جوزف تشمبرلن Joseph Chamberlain . نبغ تشمبرلن فى وزارة الأحرار وأصبح له فيها نفوذ كبير بالرغم من أن الوزارة التى كان يتولى شئونها ، وهى وزارة التجارة ، لم تكن وزارة كبيرة • لم يكن تشمبرلن فى ذلك الوقت (١٨٨٤) بكبير الحب لفرنسا ، وكان من القائلين بشراء الصداقة الألمانية ، وكان يعضده فى ذلك الرأى لورد هاردنجتن Hartington وسير تشارلز ديلك Charles Dilke والبرنس أوف ويلز ولى عهد انجلترا •

على أنه فى هذه الأثناء مات لورد امتهل Ampthill (لورد أودو رسل) ، وكان سفيرا لانجلترا فى برلين مدة سنوات عديدة عمل فيها على توثيق الصلات بين ألمانيا وانجلترا ، فكان لموته أثر سيء على العلاقات الانجليزية الألمانية ، فلقد عرضت الحكومة الانجليزية تعيين سير روبرت موريير Robert Morier خلفا له ، فرفض بزمرك لأنه لم يكن ترقه شخصية ذلك الرجل ولا آراؤه السياسية ، فأسرعت الحكومة الانجليزية الى تعيين سير ادوارد مالت Edward Malet قنصلها الجنرال السابق فى مصر سفيرا لها فى برلين ، وهو رجل برز فى ناحية السياسة والدبلوماسية • وفى هذه الأثناء أيضا كان بزمرك قد هدد انجلترا بأنه اذا استمرت الحكومة الانجليزية فى موقفها العدائى ازاء المشاريع الألمانية الاستعمارية فسيقطع نهائيا الصلات الطيبة معها ، وسيعمل على التقريب ما بين وجهات النظر الألمانية والفرنسية ، وعمل فعلا على اثارة صعوبات لا يستهان بها لانجلترا فى مصر وخاصة فى مسألة صندوق الدين [١] • بل وذكر الحكومة الانجليزية بلهجة حاسمة بضرورة احترام المعاهدات التى عقدتها مصر قبل الاحتلال مع الدول الأوربية • وكانت انجلترا قد فكرت فعلا فى تغيير بعضها [٢] •

---

(١) الوثائق الألمانية إلى هربرت بزمرك ٩ يوليو سنة ١٨٨٤

(٢) نفس المصدر مذكرة وليم بزمرك السياسية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤

فلا عجب اذن اذا رأت وزارة جلادستون أن تطاطىء الرأس أمام ألمانيا ، وكان جرانفل وزير الخارجية الانجليزية فى نظر الألمان قد كبر سنه وفقد ذاكرته واضمحلت أعصابه ، وكان هو ووزير المستعمرات لورد داربى مصدر قلق كبير لألمانيا « فلورد داربى شخصية لايمكن الاعتماد عليها كثير الشك يرى مصيدة فى كل شىء » (١) .

تراجعت الحكومة الانجليزية حين وجدت أن الأمور قد تحرجت عليها فى مصر نتيجة لموقف ألمانيا العدائى . وظهر ذلك التراجع فى التصريحات التى أدلى بها سيرتشارلز ديلك لهربرت بزمرك المبعوث الألمانى فى لندن . فلقد حمل ديلك بعنف على سياسة جرانفل نحو ألمانيا ونعى عليه اضطرابه فى سياسته واعوجاجه وقصر نظره فى المسائل الاستعمارية ، وأن من حق الحكومة الألمانية أن تحتج على سلوكه الغبى ، وأن الخطأ بلا ريب هو خطأ انجلترا ، فقرر هربرت بزمرك أن الصحف الانجليزية أيا كان لونها الحزبى قد هاجمت ألمانيا ، وحاولت افساد العلاقات الألمانية الفرنسية ، وأن انجلترا يجب أن تعرف أن المنازعات بين ألمانيا وفرنسا ليست قيدا فى أرجل ألمانيا تستغله الدول الأخرى ، وأن لورد جرانفل « قد قدر صداقة ألمانيا لانجلترا كصداقة الدنمارك أو اليونان ، وأنه لعله الآن يعرف من التجارب مدى قوة ألمانيا وقيمة صداقتها حين تعقدت أمور مصر » .

حينئذ كرر ديلك اعتذاره وقال ان سياسته كانت ولا تزال دائما التعاون التام مع ألمانيا ، « فانكم لن تذهبوا الى حد اعلان الحرب علينا من أجل مصر ، ولكن فرنسا قد تفعل ذلك ... وما يجب علينا أن ننظر اليه دائما هو موقف فرنسا نحو الأعمال التى نجد أنفسنا مضطرين الى اتخاذها فى مصر » (٢) .

---

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك إلى بزمرك ١ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

(٢) الوثائق الألمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤

كان بزمرك لا يرى فى مسألة مصر أمرا حيويا بالنسبة لألمانيا ، وأن المسألة الاستعمارية مسألة حيوية بالنسبة لهـا ، لارضاء المستعمرين الألمان من ناحية ، واستصلاح الرأى العـام وتدعيم موقف الحكومة الداخلى ، وكان يعلم أن الموقف الذى وقفه فى مسألة مصر كان نتيجة طبيعية لوقوف انجلترا أمام أمانى ألمانيا الاستعمارية ، فكما يقول « ان أقل ركن فى غينيا الجديدة أو افريقية الغربية حتى ولو لم تكن له قيمة فى ذاته هو أهم فى نظرنا وفى سياستنا من كل مصر ومستقبلها » (١) • فالرأى العام الألمانى لا يهتم بأمور مصر ، والمستعمرون الألمان قد وجهوا عنايتهم الى مناطق بكر جـديدة لم تكن مصر ، المثقلة بالديون والتى وقفت معظم مواردها على خدمة الدين ، واحدة منها • ولقد اتهم المستشار الألمانى انجلترا بالعمل على ايقاع الشحناء بينه وبين فرنسا وروسيا ، فانجلترا ، كما يقول ، تعمل على اثارة الأمور فى أوربا ضد ألمانيا حتى تستطيع أن تنفذ بنجاح سياستها الاستعمارية فى مصر وفى افريقيـة والشرق •

ولذا حين خطب جرانفل فى البرلمان الانجليزى فى١٧ فبراير سنة١٨٨٥ ، وأراد أن يورط ألمانيا أمام الرأى العام ، فقرر أن ألمانيا تعطف دائما على مركز انجلترا فى مصر ، وتؤيدها فى سياستها تأييدا تاما ، صحح بزمرك مركز ألمانيا ، وأكد أن تصريحات جرانفل غير دقيقة وغير صحيحة ولا تطابق ما حدث فعلا ، « وأن بزمرك عمل على المحافظة على حقوق السلطان فى مصر » ، « وأنه لم يكن عنده مانع من أن تعمل انجلترا على بسط نفوذها فى مصر بمفاوضات ودية مع السلطان وبتعاون السلطان ، وأن ألمانيا ليست لها مصالح مباشرة فى مصر تجعلها تثير عقبات جدية فى وجه انجلترا » (٢) •

---

(١) نفس المصدر بزمرك إلى منستر ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

(٢) الوثائق الانجليزية المنشورة فى الـكتاب الأزرق الانجليزى Blue Book لسـنة ١٨٨ صحيفة Nôrd Deutsche Allgemeine Zeitung ٢ مارس ١٨٨٥

لقد كان جو المحادثات بين انجلترا وألمانيا عاصفا ، وكان جرانفل كثيرا ما تثور ثائرته ويغضب ، ولكن موقف ألمانيا بالنسبة لمصر أرغمه على التراجع والتسليم بمطالب الألمان جميعها . وجاء جلادستون نفسه الى هربرت بزمرك يعلن له أنه يشجع ألمانيا فى سياستها الاستعمارية ، وأنه مبتهج لآمالها الحضارية . ولعل السبب المهم الذى جعل الانجليز يتراجعون هو احتمال تعاون ألمانيا وفرنسا البحرى ، فبحرية ألمانيا وفرنسا مجتمعتين متفوقة فى ذلك الوقت على البحرية الانجليزية ، ولما كان التقارب قويا بين بزمرك وجيل فرى Jules Ferry رئيس الحكومة الفرنسية ، فبزمرك يؤيد مطالب الفرنسيين الاستعمارية وموقفهم فى المسألة المالية المصرية ، وفرى يؤيد ألمانيا ، استطاع التحالف الجديد تحقيق أغراض الطرفين فى مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ . على أن بزمرك لم يشأ أن يتحدى انجلترا أكثر من هذا ، فهو لا يثق تماما بفرنسا ، وانجلترا من ناحيتها فى أشد الحاجة الى صداقة بزمرك ، فالحالة فى السودان كانت سيئة للغاية ومنذرة بشر مستطير ، ففى أول سنة ١٨٨٥ سقطت الخرطوم فى يد المهديين ، وقتل جوردون Gordon ، وضاع ما كان لانجلترا من مركز فى الشرق بأكمله ، واقتحمت الجيوش الروسية حدود الأفغان وهددت الهند ، وتجمعت المتاعب والأزمات على انجلترا فى افريقية وآسيا بشكل خطير .

صفا الجو أخيرا بين ألمانيا وانجلترا بتراجع وزارة الأحرار ، وزاد الجو صفاء سقوط هذه الوزارة ، فلم تعد ألمانيا تحرك مسألة مصر من جديد ، اذ كانت سياسة المحافظين التقليدية المحافظة على صداقة ألمانيا . فعاد بزمرك الى تأييد سياسة انجلترا فى وادى النيل ، ويظهر هذا حين وجدت الحكومة الانجليزية نفسها مضطرة الى الاتصال بألمانيا لتتعرف رأيها فى أمر مصير مصر ، وذلك فى سنة ١٨٨٦ حين أثار لورد راندلف تشرشل Rundolph Churchill مسألة مصر أمام السفير الألمانى فى لندن ،

وأبدى قلقه الشديد من أن احدى الدول الكبرى عازمة على تهديد مركز الانجليز فى مصر ، باثارة موضوع جلاء الانجليز عن وادى النيل مرة أخرى ، وطلب معرفة موقف ألمانيا ازاء هذه الحالة المملوءة بالنذر وقال : « ان فى يد ألمانيا الآن اضعاف مركز المحافظين على مسألة مصر » ، فرد هاتسفلت Hatzfeldt السفير الألمانى فى لندن بأن المسألة لن تثور بشكل جدى فى الوقت الحاضر ، نظرا للعلاقات الطيبة بين ألمانيا وانجلترا ، وعقب بزمرك فى برلين بأن ألمانيا لن تشترك مع أى دولة أخرى فى أى مطلب يتعلق بموقف الانجليز فى مصر • أما اذا لم تتعاون انجلترا مع ألمانيا فى المسائل الاستعمارية فالموقف لابد متغير (١) • ولقد بالغ تشرشل فى شكر الألمان ، وبين أن الموقف الألمانى سيجعل الحكومة الانجليزية مطمئنة الى وضع مشاريعها الخاصة بالمالية المصرية ، فلن تخشى الآن شيئا من فرنسا (٢) •

وكان شك بزمرك المريب فى سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يمضى فى سياسته القائمة على صداقة انجلترا وتأييد سياستها فى مصر ، فهو يصرح لحكومة سولسبرى « نحن لا نستطيع أن نعتمد على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى فى وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقيا وليس أمامنا سوى الانضمام الى جانب انجلترا » (٣) •

زال بزمرك من مسرح السياسة الأوربية فى سنة ١٨٩٠ ، ولم تختلف سياسة القيصر الألمـانى فلهلم الثانى أو المستشار الجـديد كابريفى عن سياسة بزمرك فيما يختص بمصر وان اختلفت دوافعهما الى حد ما عن دوافعه • وكان الدافع لهما على انتهاج خطة بزمرك هو التقارب الجديد بين فرنسا وروسيا الذى تم بعقد التحالف بين الدولتين • فكان من الطبيعى

---

(١) الوثائق الألمانية هاتسفلت إلى بزمرك ٢٠ سبتمبر ١٨٨٦ وبرقية بزمرك إلى هاتسفلت ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٢) نفس المصدر هاتسفلت إلى بزمرك ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٣) نفس المصدر رقم ٧٠٢ عن Langer: European Allianees.

أن تتجه ألمانيا شطر انجلترا وأن تهتم بقدر المستطاع بالمحافظة على صداقتها بتأييدها . فأوربا قد انقسمت الى معسكرين المعسكر الألمانى ، والمعسكر الفرنسى الروسى فكان هدف ألمانيا الطبيعى ضم انجلترا إلى المعسكر الألمانى ، ووجدت ألمانيا فى التحالف الثلاثى بينها وبين النمسا وايطاليا خير وسيلة لارضاء الحكومة الانجليزية سواء أكانت حكومة سولسبرى أو جلادستون . فكما يكتب وزير الخارجية الألمانية مارشال Marshall الى سفيره فى لندن هاتسفلت ، وذلك فى سنة ١٨٩٣ « اننا **سنستمر فى تأييد انجلترا طالما كانت لها سياسة مستقرة فى مصر والشرق الأدنى** » .

«ومن اللحظة التى نعتقد فيها أن انجلترا غير قائمة بذلك ، أو نالها الوهن أمام روسيا وفرنسا ، يجب أن نبحث وسائل أخرى لوقف أى اعتداء من جانب التحالف الفرنسى الروسى » (١) ، فألمانيا اذن مستعدة للأخذ بناصر انجلترا طالما وقفت انجلترا حاجزا قويا أمام مطامع فرنسا وروسيا .

فلا غرابة اذن اذا ناصرت الحكومة الألمانية وزارة سولسبرى نصرا مؤزرا ، واذا أيدت وزارة روزبرى من بعده تأييدا قويا ، فكلاهما الى حد كبير كان ميالا الى الانضمام الى التحالف الثلاثى معضدا لسياسته . وهذا يفسر لنا تأييد ألمانيا لانجلترا فى مشاريعها المتعلقة بالدين والقضاء ومحاولاتها اصلاح الحالة فى مصر ، كما يفسر لنا جهود ألمانيا فى تهدئة روع الباب العالى من ناحية مركز الانجليز فى مصر ، والتقريب ما بين وجهتى النظر العثمانية والانجليزية فيما يختص بمصر ، ومحاربة جهود فرنسا المستمرة فى اثارة الباب العالى للاحتجاج ضد انجلترا أو عرض مسألة مصر من جديد على الدول الكبرى .

ولما جاءت وزارة روزبرى التى تعين فيها لورد كمبرلى Kimberley وزير الخارجية ظلت ألمانيا على موقفها لا تثير صعوبات أمام انجلترا طالما لم تمس المصالح الألمانية بضرر وطالما كان لورد كمبرلى مخلصا فى

---

(١) الوثائق الألمانية ٩ يوليو سنة ١٨٩٣

تنفيذ آراء رئيسه روزبرى . ولذا لما أعوج كمبرلى قليلا عن السنن الذى اختطه رئيسه ، وهدد بالتقرب من فرنسا وذلك حين أبدت الحكومة الألمانية بعض المعارضة للسياسة الانجليزية فى مصر فى سنة ٨٩٤ ، بينت الحكومة الألمانية له بأنه مخطىء فى اتباع مثل هذه السياسة ، وأنه سينجم عن ذلك لانجلترا متاعب لا قبل لها بها ، وأن الحكومة الألمانية تعلم أن السفير الفرنسى قد هدد انجلترا بالتقرب من ألمانيا نهائيا والتفاهم على مسألة الالزاس واللورين ، وأنها أى الحكومة الألمانية تستطيع تهديد انجلترا واثارة مشاكل معقدة لها بتأييد سياسة فرنسا فى مصر وتستطيع بعد ذلك التفاهم مع الفرنسيين فيما يختص بحدود الرين . فما كان أمام وزير الخارجية الانجليزية الا الاسراع الى التراجع ، واضطر لورد كمبرلى الى تغيير موقفه وتحسين لهجته مع ألمانيا ، وشكرها على موقفها العام ازاء انجلترا فى مصر [١] ، ونتيجة لذلك أصدرت الحكومة الألمانية الى قنصلها العام فى مصر بارون فون هايكنج Von Heyking بتعليمات توجه نظره فيها بألا يعارض سياسة انجلترا وألا ينضم الى أعدائها فى المستقبل الا اذا جاءته أوامر من حكومته تفيد ذلك .

وكان يهم ألمانيا فى ذلك الوقت بقاء مسألة مصر معلقة ومعقدة وموضع تنازع شديد بين انجلترا وفرنسا حتى ترى الحكومات الانجليزية ضرورة المحافظة دائما على صداقة ألمانيا ، كما كان يهم ألمانيا ألا تؤيد سياسة انجلترا على طول الخط حتى لاتعتبر انجلترا ذلك واجبا يجب أن تؤديه ألمانيا باستمرار نحوها ، ولكن ينبغى أن تكون سياسة ألمانيا نحو مصر — كما يرى الساسة الألمان من القيصر الى المستشار كابريفى الى وزير الخارجية مارشال — يجب أن تكون سياسة ألمانيا بصفة عامة مبهمة لاتعرف انجلترا حدودها ولا منتهاها ولا مقاصدها ، وأن تقوم بتأييد السياسة الانجليزية فى المناسبات المختلفة حسب ما تملى المصالح الألمانية

(١) نفس المصدر مارشال إلى هاتسفلت ٢ مايو سنة ١٨٩٤

ومصالح التحالف الثلاثى [1] . وأن تتخذ ألمانيا من مسألة مصر وسيلة لتسوية حسابها مع انجلترا فى المسائل الأوروبية والمسائل الأخرى التى تهمها .

ولهذا لم يتورع القيصر الألمانى عن تهديد انجلترا بمعارضة سياستها فى مصر اذا لم تحل مسألة الكنغو حلا مرضيا لألمانيا ، وتم للقيصر ما أراد ، « فمصر كما يقول بارون فون روتنهام فى وزارة الخارجية الألمانيـــة ، كبلغاريا بالنسبة لنا ، ليست غاية سياسية فى حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لتنظيم علاقات ألمانيا مع الدول الأوربية (وخاصـــة انجلترا) بطريق تنفق والمصالح الألمانية » . ولذا لايهم ألمانيا القيصرية فى ذلك الوقت أن يشتجر الخديو عباس الثانى فى نزاع مستمر مع لورد كرومر ، ولا يهمها من يكون المنتصر منهما ، ولا يهمها اذا كان الرأى العــام المصرى قد نما شعوره بالقومية ان تعارض هذا مع المصالح الألمانية ، وانما يهم ألمانيا قبل كل شىء أن تكون صديقة لانجلترا ، وأن تقوم مشاكل معقدة فى مصر لاتستطيع انجلترا حلها وحدها ، فتضطر الى طلب المعونة من ألمانيا والانصراف عن الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى [2] .

وحين قررت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع الســـودان والقضاء نهائيا على ثورة المهديين الدراويش وانتهز القيصر هذه الفرصة لتأييد سياسة انجلترا تأييدا تاما ضد فرنسا ، هددت فرنسا ، وثار الرأى العــام الفرنسى وأنذرت الحكومة الفرنسية بالحرب . ولكن التـأييد الألمــانى قوى من مركز انجلترا بدرجة جعلتها تتحدى فرنسا ، وتقوم بتنفيذ أغراضها ، وترســـل الحملة المصرية آمنة مطمئنة . وافق القيصر الألمانى أولا على أن تقوم المالية المصرية بنفقات الحملة الى دنقلة الا أنه

---

(١) نفس المصدر Rothenham فى وزارة الخارجية الألمانية إلى بارون فون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤

(٢) الوثائق الالمانية بارون فون روتنهام إلى بارون فون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤

رفض رفضا باتا مشروع سولسبرى الذى يرمى الى تقسيم الدولة العثمانية والانفراد بمصر ، فالقيصر صديق الدولة العثمانية ولا يبغى انحلالها فى ذلك الوقت ، كما أن القيصر الألمانى أيد وزارة سولسبرى فى مسألة استرجاع السودان لأنه كان يعمل على ازالة الأثر السيىء الذى أحدثته برقيــة كروجر فى انجلترا ، هذه البرقية التى أثارت الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى ضد ألمانيا ، ولذا فقد كان يخشى أنه اذا لم تؤيد الحكومة الألمانية انجلترا فى مسألة السودان ربما دعا ذلك الموقف انجلترا الى التفكير فى تغيير سياستها نحو ألمانيا وتعضيد الفريق الانجليزى القائل بضرورة اصلاح العلاقات الفرنسية الانجليزية والانضمام الى الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى . لاسيما وأنه أى القيصر كان يعلم جد العلم أن لورد سولسبرى ولو أنه ميال الى مجاملة ألمانيا والى تأييد سياستها الأوربية والاستعمارية الا أنه غير ميال الى تجديد اتفاقية البحر الأبيض مع صديقة ألمانيا وهى ايطاليا الاتفاقية التى عقدت فى سنة ١٨٨٧ هذه الاتفاقية التى كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثى فى البحر الأبيض ، كما كان يعلم أن سولسبرى يود لو استطاع تحسين علاقاته بفرنسا والاتفاق معها على المسائل المختلف عليها بينهما .

وكان تأييد ألمانيا لانجلترا فى نظر القيصر الألمانى ضروريا جدا من ناحية أخرى ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا انهزاما منكرا أمام الأحباش فى موقعة عدوه ، فلقد كان القيصر دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعها بضرورة اغاثة الايطاليين خلفائه . ولذا حاولت وزارة سولسبرى تبرير الحملة المصرية الى السودان أمام دول التحالف الثلاثى ألمانيــا والنمسا وايطاليــا برغبة انجلترا فى نصرة الايطاليين الحبشة .

وبالرغم من الاتفاق الودى الذى تم بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ بشأن مصر ومراكش ، ذلك الاتفاق الذى أطلق يد الانجليز حرة فى مصر ،

واعترفت فيه فرنسا بالاحتلال الانجليزى ، ولم تعد انجلترا فى كبير حاجة الى تأييد ألمانيا السياسى — بالرغم من ذلك فقد ظلت العلاقات الانجليزية الألمانية بالنسبة لمصر بصفة عامة جيدة ، فلم تعمل ألمانيا من جانبها على احراج مركز الانجليز فى مصر ، وذلك خشية زيادة توثق العلاقات الفرنسية الانجليزية ، فلقد كانت السياسة الألمانية ترمى الى الفصل بين الدولتين بكل الطرق الممكنة . كذلك لم تبد ألمانيا حماسا كبيرا لمشاريع الانجليز فى مصر . ومن ناحية ثالثة كان اهتمام ألمانيا منصرفا عن مسألة مصر وموجها الى السياسة العالمية سياسة الـ Weltpolitk ، الى المسائل التى تهم ألمانيا مباشرة ، مسائل آسيا الصغرى والعراق حيث كانت ألمانيا تعمل على مد نفوذها الى بغداد والخليج الفارسى ، الى مسائل الشرق الأقصى ، وخاصة بعد الحرب الروسية اليابانية التى اندحرت فيها روسيا والتى أخذت بعدها اليابان تتزعم شرقى آسيا . وهناك مشاكل البلقان التى أخذت تنذر باصطدام خطير بين دوله الناشئة ، وبنزاع خطير بين حليفة ألمانيا وهى النمسا وبين روسيا .

وظل موقف ألمانيا بالنسبة لمصر لم يتغير حتى قامت الحرب الكبرى الأولى بين انجلترا وألمانيا ، وأعلنت انجلترا زوال سيادة تركيا وبسطت حمايتها على مصر ، فكان من الطبيعى ألا تعترف ألمانيا بذلك التغيير فى مركز مصر ولا فى مركز الانجليز فى مصر ، وبعد ذلك فتركيا التى كانت لها السيادة فى مصر حليفة لألمانيا ، ولذا ظلت ألمانيا على رأيها بأن مصر جزء من الدولة العثمانية ، وأيدت الأتراك فى محاولتهم اليائسة غزو مصر من الشرق وطرد الانجليز منها . الا أن انهماك الألمان فى الحرب واضطرارهم الى قبول معاهدة فرساى أرغمهم على الاعتراف بالحماية الانجليزية على مصر . ولما أعلنت انجلترا انتهاء الحماية وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كانت ألمانيا من الدول التى اعترفت بالمركز الجديد لمصر ، وتبادلت التمثيل السياسى معها .

محمد مصطفى صفوت